مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية

فصلية علمية محكمة تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

أثر الفكر الغنوصي في تكوين اللاهوت المسيحي

د. محمود عبد الرحمن دادو

كلية الشريعة

جامعة حلب

مجلس النشر العلمي



جامعة الكويت
KUWAIT UNIVERSITY

P-ISSN: 1029-8908

E-ISSN: 2960-1479

العدد ١٤٤ - السنة ٤١

رمضان ١٤٤٧ هـ - مارس ٢٠٢٦م

البحث الثامن

أثر الفكر الغنوصي في تكوين اللاهوت المسيحي

د. محمود عبد الرحمن دادو
أستاذ العقيدة المساعد بقسم العقائد والأديان والفلسفة الإسلامية - كلية الشريعة - جامعة حلب

للاستشهاد:

دادو، محمود عبد الرحمن. (2026). أثر الفكر الغنوصي في تكوين اللاهوت المسيحي. *مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية*، *41*(144)، 279-317.

https://doi.org/10.34120/jsis.v41i144.3339

To cite:

Dado, M. A. (2026). The influence of Gnostic thought on the formation of Christian theology. *Journal of Sharia and Islamic Studies*, *41*(144), 279-317.

https://doi.org/10.34120/jsis.v41i144.3339

أثر الفكر الغنوصي في تكوين اللاهوت المسيحي

د. محمود عبد الرحمن دادو *

تاريخ الاستلام: يوليو ٢٠٢٤ تاريخ الإجازة: سبتمبر ٢٠٢٤

ملخص البحث

فكرة البحث الرئيسة إيضاح الأثر الفلسفي الغنوصي في القرون المسيحية الأولى قبل مجمع نيقية سنة ٣٢٥م، وتظهر **أهمية البحث** في إثبات وجود ركائز واضحة للفكر الغنوصي في القرون المسيحية الأولى التي كانت قبل انعقاد مجمع نيقية المسكوني كان لها دورٌ واضح في نشأة مدارس الفكر الغنوصي في التاريخ المسيحي في القرن الثاني الميلادي وتطوُّره في القرون التالية، وتتضح **مشكلة البحث** في التساؤلات الآتية: هل وجدت أنظمة فكرية واضحة للفكر الغنوصي قبل بداية التاريخ المسيحي؟ وهل أثّرت هذه الأنظمة في بلورة مدارس غنوصية ضمن المنظومة الفكرية العامة للديانة المسيحية؟ ومَن هم الأعلام الذين تبنَّوا الفكر الغنوصي؟ وما مدى تأثير الفكر الغنوصي في المسيحية الرائجة؟ **ويهدف البحث** إلى الكشف عن وجود التيارات الغنوصية قبل الديانة المسيحية، وإبراز الأعلام الذين تبنَّوا الفكر الغنوصي في التاريخ المسيحي وتحديد أهم الأُطُر الفكرية التي ضمَّتهم في نسيجٍ فكري واحدٍ تحت اسم الغنوصية، وتعيين الأثر المتسرِّب من الغنوصية إلى المسيحية الرائجة، وقد اتبعت في هذا البحث **المنهج** التاريخي المقارن، ومن **أبرز النتائج** التي توصّل إليها الباحث أرجحية وجود أنماطٍ فكرية سابقة على العهود المسيحية المبكّرة كانت بمنزلة التأسيس

* **د. محمود عبد الرحمن دادو:** يحمل شهادة الدكتوراة في العقائد والأديان من جامعة دمشق، عام ٢٠٢٠، والماجستير في العقائد والأديان من جامعة دمشق، عام ٢٠١٦، والليسانس في أصول الدين من جامعة حلب، عام ٢٠١٠، يعمل مدرساً في كلية الشريعة في جامعة حلب قسم العقائد والأديان والفلسفة الإسلامية، منذ عام ٢٠٢٠، وهو عضو باحث في عدد من المراكز البحثية في العالم، ومحكِّماً معتمداً فيها. له كتاب تحت الطبع، وثلاثة عشر بحثاً عالمياً محكَّماً.
الاهتمامات البحثية: تاريخ الأديان، ومقارنة الأديان، الفلسفة الإسلامية، الفكر المعاصر.
البريد الإلكتروني: mahmoud.dado@alepuniv.edu.sy

للفكر الغنوصي الذي تطوَّر في المسيحية، لذلك **يرى الباحث** ضرورة وجود دراسات علمية تغطِّي تلك الفترة التاريخية بما يحدّد مدى تأثر الأفكار المسيحية بالغنوصية، كما استنتج الباحث وجود أعلامٍ مسيحيين تبنَّوا الغنوصية بمستويات مختلفة، وسريان هذا الفكر في المسيحية الرائجة ولاً سيما في عقيدة الخلاص والفداء.

الكلمات المفتاحية: الفكر الغنوصي، المسيحية الأولى، الثنوية، الخلاص.

The influence of Gnostic thought on the formation of Christian theology

Dr. Mahmoud Abdel Rahman Dado *

Submitted Date: Jul 2024 **Accepted Date: Sep 2024**

Abstract

The main idea of the research is to clarify the philosophical impact of Gnosticism in the first Christian centuries before the Council of Nicaea in the year 325 AD. **The importance of the research** appears in the presence of clear pillars of Gnostic thought in the first Christian centuries had a clear role in the emergence of schools of Gnostic thought in Christian history in the second century AD and its development in the following centuries. **The research problem** becomes clear in the following questions: Were there clear intellectual systems of Gnostic thought before the beginning of Christian history? Did these systems influence the crystallization of Gnostic schools within the general intellectual system of the Christian religion? Who are the notables who adopted Gnostic thought? What is the extent of the influence of Gnostic thought on popular Christianity? **The research aims** to reveal the existence of Gnostic currents before the Christian religion,

* Faculty member - Department of Islamic Beliefs, Religions and Philosophy - Faculty of Sharia - University of Aleppo
Email: mahmoud.dado@alepuniv.edu.sy

highlight the figures who adopted Gnostic thought in Christian history, identify the most important intellectual frameworks that included them in a single intellectual fabric under the name of Gnosticism, and identify the influence seeping from Gnosticism to popular Christianity. In this research, **I followed the method** Historical and Comparative, one of **the most prominent findings reached** by the researcher is the existence of intellectual patterns prior to the early Christian eras that served as the foundation for Gnostic thought that developed in Christianity, **Therefore, the researcher sees** the necessity of having scientific studies covering that historical period in order to determine the extent to which Christian ideas were influenced by Gnosticism, The researcher also concluded that there were Christian figures who adopted Gnosticism at different levels, and that this thought was prevalent in popular Christianity, especially in the doctrine of salvation and redemption.

Keywords: Gnostic thought, early Christianity, Dualistic, salvation

المقدمة

شكَّلت الفلسفة ملاذاً مهماً لكثير من المفكّرين الذين حاولوا تفسير قضايا العالم ومسائل الوجود التي تدور في فلك الثلاثي المعروف في الفلسفة (الله، الكون، الإنسان)، ولقد حاول هؤلاء تبرير المسائل التي تلحُّ على العقل البشري طالبةً جواباً شافياً تطمئن إليه النفس ويرتاح له القلب.

وفي ظل غياب الوحي الإلهي يلجأ البشر الذين تقادم بهم العهد في خبر السماء إلى العقل الإنساني بمطارحات توضح ما يعتلج في خواطر الإنسان من أسرار، فيبادرُ كلٌّ منهم بحلول يرى أصحابها أنها الأقرب إلى الصواب والأجدر بالإيمان، ولا يخفى أن البشر يتفاوتون فيما بينهم في فهم الحقائق الدينية والمسائل الكونية والقضايا الإنسانية؛ وذلك تابع لاختلافهم الطبيعي في الملكات الفكرية من ناحية، وهذه الاختلافات بالذات هي ما جعلتنا نرى أنساقاً مختلفة في الفكر الفلسفي الإنساني منذ عهود الفلسفة الإغريقية، ولا يخفى أيضاً أن الحدس الإنساني يُلحُّ على الإنسان في كثيرٍ من الأحيان طالباً منه الإيمان بحقائق غيبية ومعارف باطنية مخالفةٍ لما يظهر للحسِّ وما يألفه البشر، ولقد أخذ بهذا الأسلوب في التفكير عدد غير قليل من أرباب الفكر في التاريخ البشري مما حدا بهم في مطلع القرون المسيحية الأولى إلى تنظيم هذا الفكر ضمن بلورةٍ فلسفية مستقلة سُمِّيَت بالغنوصية.

وتأتي الغنوصية نتيجة لمحاولات بشرية كثيرة حاولت اكتناه المعرفة الغيبية وفهم أسرار الكون، وكذا إيجاد حلول مقبولةٍ لقضايا فلسفية كثيرة، كمشكلة الشر في العالم، وصدور النقصان عن الكمال، وصحيح أن الغنوصيين قبل المسيحية كانوا مجموعات بشرية قليلة غير منتظمةٍ في سلك ذي قضايا متفق عليها لكنهم غدوا بعد تطوُّر الفلسفة الهيلينية – وهي الفلسفة التي سادت في اليونان وعمَّت سورية ومصر بعد أرسطو خلال الفترة الممتدة بين القرن الرابع قبل الميلاد إلى بداية العصور الوسطى – التي حاولت تبرير القضايا الدينية بأساليب فلسفية مجموعات أقرب إلى تشكيل فلسفة مستقلة عن التيارات الفلسفية التي كانت سائدة في تلك الحقبة التاريخية، ومع أن الغنوصية تعتمد الفلسفة اليونانية الإسكندرية في كثيرٍ من جزئياتها، لكن لا يجد المتأمل في مبادئها تبنياً واضحاً لها؛

بل يجدها صاغت بمختلف قضاياها ومطارحاتها مذهباً فلسفياً تلفيقيّاً، يجمع خليطاً من العناصر المختلفة من فلسفات متعددة كاليونانية والفارسية والهندية وغيرها.

ولعل الناظر في التاريخ المسيحي يُدرك أن الفكر الغنوصي لم يتطوَّر على هيئة نموذج فكري واضح إلا في القرن الثاني الميلادي، أو في أواخر القرن الميلادي الأول على أقل التقديرات، وكان ظهوره في تلك الفترة معزواً إلى شخصيات لُمِحَ في تراثها وأقاويلها روحاً غنوصية واضحة، ومع أن الفكر الغنوصي يصطدم مع الفكر المسيحي التقليدي في رؤيته لخلق الكون والخلاص والمرجعية التوحيدية أو الثنائية للصانع الأزلي نجد شخصيات حادت عن الفهم المسيحي الذي كان سائداً.

وهذا يعني بالضرورة أن المسيحية في قرونها الأولى قبل مجمع نيقية الذي انعقد سنة ٣٢٥م وُجِدَتْ فيها تياراتٌ كانت مِعْوَلاً في بناء الفلسفة الغنوصية، ولا يُنكر القارئ للتاريخ المسيحي أن عموم الفكر المسيحي كان مناهضاً للتيارات الغنوصية، ثم جاء الإسلام فأدى بهذه التيارات إلى التلاشي.

ولعل الناظر في العقائد المسيحية الحالية يرى فيها أثراً غنوصياً، مع أنه لا يُشكِّل نسقاً غنوصيّاً متكاملاً إلا أنها ترجع في أصولها إلى أفكار غنوصية، الأمر الذي يعني أن المسيحية الرائجة لا تخلو من تأثير الفكر الغنوصي الذي ناهضته ردحاً من الزمن، وهذا ما سوف نحاول توضيحه في هذا البحث بمشيئة الله.

أهمية البحث:

تتجلّى أهمية البحث في فكرته بإثبات وجود أنماط من التفكير الغنوصي سابقة على ميلاد السيد المسيح ونشأة الديانة المسيحية، هذه الأنماط التي كانت ذات تأثيرٍ واضح على المفكّرين والفلاسفة المسيحيين في القرون المسيحية المبكرة، الأمر الذي حملهم على صياغة فكرٍ غنوصي مشترك في مبادئه متنوّعٍ في طروحاته وتبريراته، وقد كان له أثرٌ واضح في تسرُّب بعض التعاليم الغنوصية إلى المسيحية التقليدية.

أسئلة البحث:

١ – ما مدى صحة وجود تيارات غنوصية قبل نشأة الديانة المسيحية؟

٢ – هل وُجد مِن أعلام المسيحية مَن آمن بالفكر الغنوصي في القرون المسيحية الأولى؟ وما أهمُّ آرائهم؟

٣ – ما الأفكار التي تأثرت بها المسيحية التقليدية والتي ترجع إلى أصولٍ غنوصية؟

أهداف البحث:

١ – الكشف عن وجود تيارات وأفكارٍ غنوصية في الفلسفات السابقة على نشأة المسيحية.

٢ – إبراز الأعلام الذين تأثّروا بالفلسفات القديمة وصاغوا أنساقاً مختلفة من الفكر الغنوصي في المسيحية وبيان أهم أفكارهم.

٣ – بيان المعتقدات والأفكار القائمة في المسيحية التقليدية التي تشكِّل أثراً غنوصياً في المسيحية التقليدية.

الدراسات السابقة:

١ – الغنوصية أو التيارات العرفانية في القرون المسيحية الأولى، تأليف: يوسف توما مرقس، بغداد، ٢٠٠٩م.

٢ – الغنوصية وتاريخ الأديان، ديفيد جي روبرتسون، مركز آفاق المعرفة، ٢٠٢٢م.

٣ – الديانة الغنوصية، تأليف هانس يوفاس، ترجمة: صباح الدهيسي، مطبعة تموز في دمشق، ٢٠١٧م.

ما يضيفه البحث:

١ – إيضاح وجود تيارات غنوصية متناثرة قبل بداية التاريخ المسيحي.

٢ – تمييز أهم الأفكار الغنوصية التي تبناها بعض المسيحيين في القرون السابقة على مجمع نيقية.

٣ – بيان الأفكار المتسرّبة من الغنوصية إلى المسيحية التقليدية.

حدود البحث:

أما الحدود المطروحة في البحث فسوف تقتصر على مسائل الغنوصية بشكل عام، وأهم الأعلام المسيحيين الذين قالوا بها، أما الحدود المرجعية فهي كتب تاريخ الأديان عموماً ولاسيما التي تحدَّثت عن الغنوصية، وكذلك كتب التاريخ المسيحي، وأما الحدود التاريخية فستقتصر على الفترة الممتدة من بداية التاريخ المسيحي إلى ما قبل مجمع نيقية سنة ٣٢٥م.

منهج البحث:

يقوم البحث على ركيزتين منهجيتين هما المنهج التاريخي والمنهج المقارن، أما المنهج التاريخي فبجمع المعلومات التي تتضمّن مبادئ الفكر الغنوصي القديم، وكذا ما يتضمّن التعليمات المأثورة عن أعلام الفكر الغنوصي، وأما المنهج المقارن فبمقارنة أصول الفكر الغنوصي ومبادئه العقائدية بالأصول الفكرية والعقائدية المأثورة عن أرباب الفكر الغنوصي من المسيحيين في الفترة التاريخية الأولى للمسيحية قبل مجمع نيقية.

خطة البحث:

جاءت خطة البحث مقسَّمة إلى تمهيد للتعريفات اللغوية والاصطلاحية، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

التمهيد

التعريف اللغوي والاصطلاحي:

أول ما يمكن الكلام عليه ضمن هذا البحث تحرير المصطلحات لبيان المقصود الذي يتوجّه البحث لمعالجته وإيضاحه، وفي هذا السياق فإننا نلحظ مصطلحاً يحتاج إلى تعريف وإيضاح وهو (الغنوصية).

الغنوصية لغةً:

جاء في قاموس (Oxford) تعريف الغنوصية على النحو الآتي:

«(GNOSTICISM): A prominent heretical movement of the ٢nd-century Christian church, partly of pre-christian origin. Gnostic doctrine taught that world was created and ruled by a lesser divinity, the demiurge, and the christ was an emissary of the remote supreme divine being, esoteric knowledge (GNOSIS) of whom enabled the redemption of the human spirit”.(١)

الغنوصية: هي حركة هرطقية بارزة في الكنيسة المسيحية في القرن الثاني، ذات أصول جزئية قبل المسيحية، علَّمت العقيدة الغنوصية أن العالم خُلِقَ وحُكِمَ من قبل إله أدنى، وهو الديمورج، وأن المسيح كان رسولاً للإله الأسمى البعيد، وأن المعرفة الباطنية (الغنوص) بهذا الإله كانت تمكِّن من خلاص الروح البشرية.

وجاء في معجم (Merriam webstar) التعريف الآتي:

«(Gnosticism): A system of belief that arose in the early Christian centuries, which emphasizes the esoteric spiritual knowledge (gonsis) necessary for salvation and often involves a

---

(١) Oxford English Dictionary, oxford university press, first 1884, p638.

dualistic view of the world, where the material world is considered evil and the spiritual world is good».[1]

نظام اعتقادي نشأ في القرون الأولى للمسيحية، يركّز على المعرفة الروحيّة الباطنية (الغنوص) الضرورية للخلاص، وغالباً ما يتضمّن رؤية ثنائية للعالم، حيث يعتبر العالم المادي شريراً والعالم الروحي جيداً.

الغنوصية اصطلاحاً:

لم يتفِّق الكُتَّاب على تعريف اصطلاحي معتمدٍ للغنوصية، لذا نجد كلَّ من كتب فيها أو ذكرها سرد لها تعريفاً حسب مفهومه الخاص عنها، وبناءً على ذلك سوف نستعرض ثلاثة تعريفات لها من المراجع الفلسفية واللاهوتية:

جاء في موسوعة لالاند: «Gnosis: انتقائيَّةٌ عرفانيَّةٌ تطمحُ إلى التوفيقِ بين كل الديانات وتفسير معناها العميق بواسطة معرفة باطنية وكاملة للأمور الإلهية، يمكن تناقلها بالتراث وبالتلقين، لم يكن تعليم مختلف الجماعات العرفانية متشاكلاً، إنما عقائدها المشتركة هي فقط الفيض، السقطة، الخلاص، ممارسة الوساطة بين الله والبشر بواسطة عدد هائل من القوى السماوية".[٢]

وعرَّفها الخوري بولس الفغالي بقوله: "تدلُّ بشكلٍ خاص على معرفة الله وعلم الإلهيات، وهي لا تبدو علماً نقتنيه ونحصل عليه، بل وحيٌّ باطني يتيح لنا أن ندرك الأسرار والخفايا، فيقودنا إلى الخلاص".[٣]

وعرَّفها هانس يوناس فقال: "عنوان لمجموعة من المذاهب الطائفية ظهرت داخل وحول المسيحية خلال قرونها الأولى الحاسمة، مشتق من (غنوص GNOSIS) الكلمة اليونانية المرادفة لكلمة (معرفة)".[٤]

(١) Merriam-Webster›s Collegiate Dictionary, Merriam-Webster Incorporated, 2003, p439.

(٢) لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، (بيروت: منشورات عويدات، ٢٠٠١)، ط٢، ج:١، ص:٤٦٧.

(٣) الفغالي، بولس، الحركة الغنوصية في أفكارها ووثائقها، (لبنان: الرابطة الكتابية، ٢٠٠٩)، ص:١٢.

(٤) يوفاس، هانس، الديانة الغنوصية، ترجمة: صباح الدهيسي، (دمشق: مطبعة تموز، ٢٠١٧)، ص:٥٢.

وعرَّفها بعض المعاصرين بأنها: «العلم بأسرار الحقائق الدينية والخصائص الإلهية وبكل ما هو سريّ وخفي، وترى الغنوصية أن ثمَّة جوهراً واحداً يجمع بين كل الديانات، لذلك لا تقدِّمُ نفسها كديانةٍ جديدة، بل كباطنٍ للشريعة القائمة، ومهمة الغنوص الكشف عن المغزى العميق للعقيدة».[(١)]

ولعل التعريف الأخير هو الأنسب بين هذه التعريفات؛ وذلك لما يشمله من محدّدات تجعل مفهوم الغنوصية أوضح، ولأنه ينطبق على تعليمات الغنوصية بشكل أكثر شمولاً.

وبناءً على ما سبق من التعريفات نستطيع رسم المعالم العامة للغنوصية في نقاط أربع:

- المعرفة بالحقائق الميتافيزيقية.
- السرية (الباطنية).
- الطبيعة التلفيقية.
- الهدف الخلاصي.

نستنتج مما سبق أن الفكر الغنوصي يقوم على معارف باطنية خفية، لا تعتمد ابتناء الفكر المعرفي من الظواهر المشاهدة، وبتطبيق هذا المبدأ على التعاليم الدينية يتضح أنها لا تولي اهتماماً لظواهر النصوص، على عكس مَن يُفسِّرُ النصَّ تفسيراً ظاهرياً حرفياً دون الاتكاء على المجاز أو التأويل، ومن هنا تلجأ الغنوصية - بشكلٍ دائمٍ - في تفسير الحقائق والنصوص إلى الرمزية والمجاز وغيرها من الأساليب التأويلية.

يقول ج. ويلتر: "إن الغنوصية تقدِّم لنا اللوحة الأكثر اضطراباً للمذاهب التوفيقية الدينية، فنحن نجد فيها خليطاً من الأسرار الوثنية، والطقوس السحرية، والنظريات الغريبة عن نشأة الكون، والتفسيرات الاعتباطية للعهدين القديم والجديد، إن كلاً من مؤسسي عرفانٍ ما (GNOSE) يُعطي الانطباع بأنه استمتع بإظهار نفسه أشد فرادة من منافسه، وأكثر عسفاً، وأعظم جنوناً".[(٢)]

---

(١) المدني، محمد نمر، الغرب ليس مسيحياً، (دمشق: دار علاء الدين، ٢٠١٥)، ص:١٠.

(٢) ويلتر، ج. الهرطقة في المسيحية، ترجمة: جمال سالم، (بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، ٢٠٠٧)، ص:٥٣.

ومما سبق يتبين أنه من الطبيعي أن تكون المعرفة الغنوصية كشفاً لبواطن الأمور، وعبوراً من الحسيات إلى العقليات، وحدساً شخصيّاً، وتَعِدُ الغنوصية أتباعها بكشف الأسرار الإلهية وتحقيق النجاة والخلاص، وعمل مثقفوها على إعطاء العميق التنظيري لمبادئها، وقد سمح لها ذلك بالتفاعل مع اليهودية والمسيحية.

المبحث الأول
جذور الغنوصية وتعاليمها ومصادر معرفتنا بها

المطلب الأول: جذور الفكر الغنوصي ونشأته:

لا يزال الطرح التاريخي الذي يحدد بداية الفكر الغنوصي ومنطلقه الزمني موضع خلافٍ بين الباحثين؛ فبينما نرى اتجاهاً يوضح التمازج الفلسفي بين الفكر المسيحي وتعاليم المدرسة الإسكندرية ويدَّعي أن هذا التمازج هو سبب ولادة الفكر الغنوصي، يبرز اتجاهٌ آخر مرجعاً بداية الفكر الغنوصي إلى القرون السابقة على المسيحية وإلى الحضارات القديمة.

وبما أن النزعة العرفانية التي هي أحد أركان الفكر الغنوصي قديمة في الفكر الديني عموماً، فإنه يمكننا أن نقول: إن ما سيأتي عرضه في هذا المطلب إنما هو مقاربة تاريخية، لا ندّعي لها اليقين، إنَّما هي أكثر رجحاناً برأي الباحث.

ولقد وقف كثيرٌ من الباحثين عند هذه النقطة، ولم يستطع أحدٌ الجزم بشيءٍ يتصل بها؛ ذلك لأنَّ العالم القديم قد عَرَفَ أنماطاً من الأفكار التي دارت في فلك المعرفة الباطنية والأسرار، وإمكان الوصول إلى الخلاص وتفسير أحداث الكون بناءً على هذه المعرفة، ثم تحصيل الخلاص للإنسان بنوال هذه المعارف وتحصيلها.

وعُرِفَت هذه الأنماط ضمن منظومات فكرية متناثرة أسماها بعض المؤرّخين بالهُرمسيَّة(١)، أو ضمن ما اصطلحوا عليه بـ(اليهودية الغنوصية)، وتؤلِّف هذه المنظومات بين تعاليمها في إطارٍ عقدي منظم، لكن يبقى عدُّ هذه المنظومات حاويةً لفروع الفكر الغنوصي بأسرها أمراً من الصعب تأكيده، ولا سيما في ظل غياب المصادر التاريخية التي تثبت ذلك أو تنفيه.(٢)

---

(١) الهرمسية هي غنوصية ميثولوجية دينية، وهي اتجاه روحي ذو صبغة دينية أممية، تُنسب إلى (هرمس) المثلث العظمة، وهو معبود الصابئة، وهو حسبما اعتقده القدماء مثلث العظمة لأنه ظهر في ثلاث تراثيات كبرى بثلاث شخصيات، فهو عند المصريين القدماء (أخنوخ)، وعند اليونانيين القدماء (إرميس)، وعند المسلمين (إدريس)، ووجِدَ للهرمسية آثارٌ تتجلى في أجزاء كبيرة منها المذهب الحلولي، والأجزاء الأخرى أخلاقيات في الغالب، ينظر: الديانة الغنوصية، هانس يوفانس، ص:١٨٠.

(٢) ينظر: إلياد، مرسيا، تاريخ الأفكار والمعتقدات الدينية، ترجمة: عبد الهادي عباس، (دمشق: دار دمشق، ١٩٨٧م)، ج:٢، ص:٣٢١.

وهذه المنظومات الهُرمسيَّة هي مجموعة من المعتقدات الدينية والأفكار الفلسفية التي يُعتَقَد أنَّها أُلِّفَت في الفترة المنحصرة بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الثالث الميلادي، وتُنْسَبُ إلى (هرمس المثلث العظمة)، وهي شخصية تضاربت الآراء حول أصلها، ينسبها المصريون القدماء إلى (أخنوخ)، وينسبها اليونانيون إلى (إرميس)، وينسبها المسلمون إلى (نبي الله إدريس) عليه السلام، بينما يذكر المؤرخ هيرودوت أنَّ هذه المؤلفات هي مجموعة من المتون التي كتبها أصحابُها بإلهامٍ من الإله المصري (توت) في العصر البلطمي حوالي القرن الرابع قبل الميلاد، وقد تمت ترجمتها من اللغة المصرية القديمة إلى اللغة اليونانية بفضل كهنةٍ مصريين يتقنون اللغة اليونانية.[١]

وبناءً عليه يمكن أن نُرجِعَ أولى الأفكار الغنوصية إلى المدونات الهُرْمسية القديمة التي انتشرت في بداية القرن الثاني قبل الميلاد؛ ودليلنا على هذا أن هذه المدونات تضمَّنت مجموعتين من الأفكار، الأولى هي الكتابات الشعبية التي تحتوي على عقائد السحر والتنجيم والكيمياء، والثانية تضمُّ لاهوتاً على نمط الديانات الخَلَاصِيَّة.

ولقد قام بعض المعاصرين بتقديم بعض المصادر الهيلينية والبابلية والمصرية وكل توليفة ممكنة للأفكار الغنوصية، لا سيما المصادر اليهودية والمسيحية، وحيث إن الغنوصية من حيث محتواها هي في الواقع نتاج تلفيقيَّةٍ ما فإن تلك النظريات يُمكن أن تُدعم بالمصادر التي تشير إلى وجود الأفكار العرفانية والباطنية في تلك الفترة، لكن مما يُؤخذ على هذه التوليفات أنَّها لا تضمُّ كل الأفكار الغنوصية، وعليه تفقد الأفكار الغنوصية المبثوثة في هذه المصادر جوهرها المستقل الذي كانت تستطيع بوجوده أن تُشكِّلَ نظاماً فكرياً كاملاً.

يقول ج. ويلتر: «يمكن اعتبار أن البدع الغنوصية أصلاً أقدم من أصل الهرطقات اليهو–مسيحية، فهي تعود إلى ينابيع مصرية وكلدانية وفارسية، وربما حتى هندوسية، ينابيع اختلطت في الإسكندرية عاصمة تلك الهيلينية المنحطة التي شهدت فيلون اليهودي يحجب بسحبٍ متماوجة أنوار الفكر الأفلاطوني الواضح».[٢]

(١) ينظر: المرجع السابق، ج:٢، ص:٣٢٢.
(٢) الهرطقة في المسيحية، ج. ويلتر، ص:٥٢.

إنَّ نصوص (نجع حمادي) تدعم الرأي القائل بوجود أنساقٍ من الفكر الغنوصي قبل نشأة الدين المسيحي، ولا يُستبعدُ أن يكون الغنوصيون الأوائل من إنتاج الفلسفة اليونانية التي عمَّت الشرق قبيل ولادة السيد المسيح بثلاثة قرون، والتي حملت إلى الشرق تصوُّرات جديدة عن الكون والإله والعالم المادي والمعرفة السرية الباطنية.

ومن أهم ما يُذكر في هذا السياق الثنوية، ومن المعلوم أن جذور الثنوية القديمة عميقة الغور، وهي تعود إلى الديانات الفارسية، وأمَّا المبنى العقائدي للقول بهذه الثنوية فهو وجود التعارض بين النظام الكوني للعالم وبين الله الفائق السمو، وهذا التعارض هو تعارضٌ تامٌ بحيث لا يمكن التوفيق بينهما، فالعالم في الثنوية مسرحٌ للصراعات والانقسام والتضاد بين النور والظلمة، وهذا الصراع قائمٌ حتى في النفس الإنسانية بين العنصر الروحي والعنصر الجسدي.(١)

وهكذا فالقسمة ثنائية بين ما هو صالح وما هو فاسد، وقد ردَّ هؤلاء كل الشرور والآفات والفساد في الكون إلى إله الشر، وكذا كل ما هو خيرٌ وصالح إلى إله الخير، وذلك على النسق المعروف في الديانات الفارسية التي انتشرت في بلاد الشرق قبل الميلاد، ولا سيما الديانة الزرادشتية.

إذ يعتقد الزرادشتيون بوجود إلهٍ للخير يسمونه (أهورامزدا)، ويقولون عنه: إله النور والسماء، وأنَّ غيره من الآلهة ليست إلا مظاهر له وصفات من صفاته، وكذلك هناك إله للشر يسمونه (أهريمان) بمعنى الخبيث أو القوى الخبيثة، وهو إله الظلمة.

وهناك صراعٌ عندهم بين إله النور وإله الظلمة، ومن هنا جاءت تسميتهم بالثنوية، (وأهريمان) هو مصدر الشر، والخالق (أهورامزدا) لا يليق به أن يُقال عنه إنَّه خالق الشر، ومن واجب المؤمنين أن ينصروا إله النور دائماً.(٢)

وتُعدُّ الثنوية من أبرز سمات الفكر الغنوصي، ومن أهم المبادئ التي تستند إليها في

(١) ينظر: بدوي، عبد الرحمن، الموسوعة الفلسفية، (القاهرة: مؤسسة المدى، ٢٠١٩)، ج:٢، ص:٨٢.

(٢) ينظر: عرموش، أحمد راتب، الزرادشتية: تاريخ الفرس وآدابهم قبل الإسلام، (بيروت: دار النفائس، ٢٠٠١م)، ص:٢٨٠.

بنيتها العامة، وهي ثنائية مادية ومعنوية تتوافق مع تقسيم كل شيء إلى ضدين متنافرين، كالمعرفة والجهل، والخير والشر، والحياة والموت، والروح والجسد، والنور والظلمة.

وتمتد هذه الثنوية لتشمل فكرة الألوهية، لذا يتحدَّث الغنوصيون عن إلهين، إله للخير وإله للشر، ويدَّعي الغنوصيون وجود مقاومة جذرية بين كل عنصر وآخر داخل كل زوج، وذلك ليستقيم تقسيمهما إلى طرفين أو نوعين متنافرين.

وكذلك فإن إدراك النفس في الفكر الغنوصي إنَّما يتم في إطار ثنائي يمكِّن الإنسانَ من أن يكتشف في داخله النور والظلمة، والخير والشر، وهذا التنوّع في النفس الإنسانية إنما هو نتيجة حضور الإله الصالح والإله الشرير في نفسه، وبهذا فإن الإنسان ممزَّقٌ بين مملكتين، فينتمي إلى الوحدة وإلى الانقسام، ووضعه هذا يعكس التعارض بين مبدَأي الخير والشر.(١)

فمما سبق يترجَّحُ لدى الباحث وجود أنظمة غنوصية واضحة المعالم غير تامة البنيان والأركان قبل نشأة الدين المسيحي، وبما أنَّ الجزم بهذه النتيجة غير ممكن - كما أسلفت - فإننا في أقلِّ التقديرات نستطيع الحديث عن إرهاصاتٍ غنوصية، وجماعات غنوصية صغيرة غير منتظمة.

ومثل هذه الإرهاصات ظهرت في جماعات افتُتِنت بالأفكار الهرمسية أو بأفكار بعض الشخصيات التي انفردت بنشر تعاليم الغنوصية محاولةً اجتذاب الأتباع، وقد استفادت المسيحية من هذا التراث الغنوصي بتوظيف معطياته لتفسير بعض الأمور الكونية والمعرفية - كما سيأتي - بغضِّ النظر عن أصل هذا التراث أو منبعه.

ولا يفوتنا أن نشير أيضاً إلى الماندية (الصابئة) والتي مثَّلت مدينة (حرَّان) القلعة الأخيرة لها بعد أن تنصَّرَ العالم الهيليني، فقد كانت مدينة (حران) موقعاً حصيناً للماندية، وامتزجت فيها وثنية الساميين القديمة مع الاتجاهات الرياضية والفلكية، وكان الحرانيون ينسبون حكمتهم إلى (هرمس) وكان لا بد أن تتأثر الدراسات الفلسفية في حران بثقافتها المحلية، وبديانة أهلها التي كانت تقوم على تقديس الكواكب وعبادتها، إضافة إلى ما احتفظت به من علوم بابل وما انتقل إليها من الفكر الفارسي بحكم الجوار.(٢)

(١) ينظر: الحركة الغنوصية في أفكارها ووثائقها، بولس الفغالي، ص:١٤-١٥.
(٢) ينظر: الحمد، محمد عبد الحميد، صابئة حران وإخوان الصفا، (دمشق: منشورات الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٨م)، ص:٣٩.

آمن المانديون بأن الأفلاك والكواكب هي أقرب الأجسام المرئية إلى الله، وأنها حية ناطقة، وهم لا يعتقدون بالنبوّة والرسالات السماوية؛ لأن الناس جميعهم متساوون في إمكانية الاتصال بالعالم العلوي، ويفرّقون في القُربان بين القربان الفلسفي المتمثّل في ترك النفس محبة الدنيا والزهد فيها، وهو قربان الحكماء والصديقين، وقربان العامة الحيواني الموجّه للهياكل المنصوبة للكواكب السيارة والثابتة.(١)

ورغم اختلاف السياقات التاريخية والدينية والثقافية التي نشأ فيها كلٌ من الفكر الماندائي والفكر الغنوصي إلا أنه من الممكن أن يلحظ الباحث الصلات بينهما، والتي تشكَّل الرابط الحقيقي بين الماندائية والغنوصية، ورغم وجود هذه الصلات إلا إنه لا يُنكر أن بينهما اختلافاً واسعاً، لا سيما في اهتمام الماندائية بالتعاليم الطقوسية، واهتمام الغنوصية بالتأمل الفلسفي الميتافيزيقي، وتظهر الروابط بينهما في النقاط الآتية:

١ – **المعرفة الباطنية (السرية):** فكلٌ منهما يولي أهميةً للمعرفة السرية التي تمثِّل الجانب الأهم في فلسفة الخلاص؛ إذ يعتقد أصحاب الفكر الغنوصي أن المعرفة السرية هي الطريق الأوحد للخلاص من العالم السفلي الشرير، أما الماندائيون فكذلك يعتقدون أن المعرفة الباطنية الروحية هي طريق خلاص الروح الإنسانية.

٢ – **الثنوية:** تتوافر الأفكار الثنوية في كلٍ من الماندائية في التمييز بين عالم النور وعالم الظلام، وكذا في الغنوصية في التمييز بين العالم المادي والعالم الروحي.

٣ – **اللغة الرمزية:** تشترك الماندائية والغنوصية في استخدام اللغة الرمزية في التعليم، الأمر الذي يطبع العقائد الماندائية والغنوصية بطابع التعقيد، إذ تستخدمان هذه اللغة في التعبير عن الحقائق الروحية وتعليمها.(٢)

---

(١) ينظر: أوليري، دي لاسي، الفكر العربي ومركزه في التاريخ، ترجمة: إسماعيل بيطار، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢م)، ص:٤١–٤٢، والحمد، محمد عبد الحميد، صابئة حران وإخوان الصفا، (دمشق: منشورات الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٨م)، ص:٥٨–٦٠.

(٢) ينظر: الديانة الغنوصية، هانس يوفاس، ص:٤١– ٤٢، ٥٥، ٦٤، ٧٠–٨٠.

المطلب الثاني: أصول الغنوصية وتعاليمها:

يدرك الناظر في تاريخ النزعات والتيارات الغنوصية الفلسفية والباطنية وكذا الفِرق المسيحية في قرونها الباكرة تماماً أن الغنوصية تيار وفكر عام واسع، اشتركت فيه فلسفات سابقة ولاحقة لنشأة الديانة، فتنوّعت مسائله وتشعَّبَتْ مطارحاته، الأمر الذي يجعل من جمعها في بوتقة واحدة تضمُّ جميع أفكارها وتعاليمها أمراً صعباً، ولقد جرى العاملون في حقل دراسة الأفكار الغنوصية وتأريخها على ذكر أهم تعاليمها وأصولها، ثم انفرد كلُ مؤلِّفٍ بذكر فروعٍ غنوصية تناسب المقام الذي يدرسه.

وإننا في هذه الدراسة ومراعاةً لمقام البحث سنقتصر على ذكر أهم أصول الغنوصية وتعاليمها التي قالت بها عامَّة التيارات الغنوصية، وهي كافية لبناء التصوُّر العام عن الغنوصية.

أولاً: الصانع:

للغنوصيين فلسفةٌ خاصةٌ في مسألة الصانع، إذ يعتقدون أنَّ المادة والروح هما المبدآن الأعليان في الوجود، وبما أن المادة شرٌّ فإن فكرة خلقها من قِبَل الإله الأسمى غير واردة في مذهب الغنوصيين، إنما تمَّ هذا الخلق بواسطة أحد آخر الأيونات، وهو الذي يسمونه (الديمورج) فهو خالق هذا العالم بما فيه من شرور وقبائح.(١)

ولإيضاح هذه المسألة بشكلٍ أكثر نحتاج إلى ربطها بالمبدأ السابق (الثنوية)، إذ تقوم العقيدة الغنوصية عموماً على اعتقاد فكرة كائنٍ أسمى ومتعالٍ لا يمكن بلوغه، وفكرة عالم سفلي فاسد ومفسد، فكيف يرتبط هذان العنصران أحدهما بالآخر؟

يتخيَّلُ الغنوصيون ما بين الكائن الأعلى والعالم الأسفل سُلَّماً كاملاً من الكائنات التي يسمونها (أيونات)، وهي تسمية مشتقة من الأصل اليوناني (أيون) بمعنى (الخالد)، وبما أن الإله الأسمى للغنوصيين كاملٌ فهو لم يتمكَّن من خلق مادة ناقصة كهذا العالم الذي نعيش

(١) ينظر: بشارة، أمجد، الثالوث القدوس قبل نيقية، (مصر: دار سلام، ٢٠١٧)، ص: ١٤٠.

فيه وما فيه من شرور وقبائح، إنَّما خلق العالم إلهٌ صانع هو نفسُهُ نتاج تكوُّنٍ معقَّدٍ تتعاقب فيه أيونات يتغيَّرُ عددُها وفقاً لسخاء كل صائغ منظومة من المنظومات الغنوصية، وتسمَّى هذه السلسلة (البليروم) بمعنى (الكائنات الكاملة).

وهذه الأيونات كلما ابتعدت أكثر عن المبدأ الأوَّل الأسمى فقدت قليلاً من ماهيَّتها الإلهية، والأخير بينها لا يمتلك إلا الحدَّ الأدنى من الألوهية، ولكنه مع ذلك جزءٌ من (البليروم)، والحال الذي حَدَثَ أنَّ أيوناً يطمح – عن جهلٍ أو كبرياء – إلى لعب دورٍ يفوق ذلك الذي تعيِّنُهُ له الطبيعة، وكعقابٍ على ذلك يجري استبعاده من البليروم، ويهبط إلى العالم الوسيط الذي يعمُرُ شيئاً فشيئاً بعدد كبيرٍ من الأيونات الثانوية.

فهذا الأيون المطرود من العالم الكامل يخلق عندئذٍ العالم المادي والإنسان اللذَين لا يمكن لطبيعتهما إلا أن تكون مشوبةً بالعيب كما الحال مع طبيعة خالقهما، فهذا الأيون الأخير هو صانع الشر وصانع العالم.[١]

ثانياً: المعرفة:

تُعدُّ قضية المعرفة المدار الرئيس الذي تدور حوله الغنوصية، والسمة الأهم التي تميِّزها عن غيرها، ولقد سمحت هذه السمة للغنوصية بالتمدّد والانتشار في تيارات ومذاهب شتّى، إذ هي عموماً الجوهر العام الذي تتبلور أفكار الغنوصية في نطاقه.

ولقد جاءت تسمية (الغنوصية) أصلاً من معنى المعرفة التي هي المعرفة الحدسية أو الباطنية، وهي تُقارب (العرفان) في التصوف الإسلامي مع اختلافٍ في تطبيقاتها ولوازمها، إذ تأتي في (الغنوصية) رتيبةً بعد الإيمان بالثنوية وبالصانع، وهذا ما لا نجده في التصوّف الإسلامي الذي يُؤمن بالتوحيد وبالإله الخالق.

يعدُّ الغنوصيون أنفسهم أنَّهم العارفون الذين يتواصلون من خلال بصيرتهم الداخلية بالحقيقة الكلية، أما خصومهم غير العارفين فهم الذين وقفوا عند ظاهر التعاليم الدينية ولم ينفذوا إلى باطنها، فإذا كان الخلاص يتأتَّى عند اليهود عن طريق الالتزام بالشريعة، وعند

---

(١) ينظر: الهرطقة في المسيحية، ج. ويلتر، ص:٥٤.

المسيحيين من خلال الإيمان بيسوع، فإنَّ الخلاص – كما سيأتي – عند الغنوصي يتأتَّى عن طريق فعاليةٍ روحانيَّةٍ داخلية تقود إلى معرفة النفس، ومعرفة النفس تقود إلى معرفة الطبيعة الإنسانية ومصير الإنسان، وهي في أعمق مستوياتها تقود إلى معرفة الله، ذوقاً وكشفاً وإلهاماً، وعند ذلك يمكن تحرير الروح الحبيسة في إطار الجسد والعالم الماديين لتعود إلى العالم النوراني الذي صدرت عنه.(١)

وبالنتيجة فإنَّ المعرفة عند الغنوصيين لا تتم بالفكر والتعليم، بل بطقوسٍ خاصة، وهي من حيث طبيعتها ليست معرفة بالأحوال الخارجية، بل بالحقائق الباطنية، وأمَّا غايتها فهي اتحاد الإنسان بالإله، وهذا قمة المعرفة، وتعدُّ الغنوصية معرفة الإنسان بنفسه هي البداية، ومعرفته بالله هي نهاية الكمال.(٢)

ثالثاً: الخلاص:

يتعلَّق هذا الأصل في الغنوصية بالذي قبله تعلُّقاً مباشراً؛ إذ ترى الغنوصية أن طريق الخلاص الوحيد الذي يمكن للإنسان أن يسلك فيه ليبلغ هدفه الخلاصي إنَّما هو طريق المعرفة، فالمعرفة الباطنية هي المسلك الوحيد للنفس الإنسانية لبلوغها الكمال وتحصيل الخلاص.

ويقصدُ الغنوصيون بالخلاص وصول الإنسان إلى معرفةٍ باطنيَّةٍ خاصَّة لا يعرفها إلا الغنوصي، وهذه المعرفة هي التي تنير لصاحبها طريق الخلاص، والهدف الأوَّل للخلاص تحرير الروح من أسر الجسد الدنيوي وذلك بتذكيرها بأصلها الإلهي عن طريق المعرفة، فإذا عرفت ذاتها عرفت خالقها؛ لأنها جزءٌ منه، وقد يقوم الوسيط السماوي بإيصال هذه المعرفة لمن يمتلك روحاً طاهرةً عارفة.

وقد يكون هذا الخلاص قبل الموت عن طريق النشوة المعرفية، حيث ينكشف النور

---

(١) ينظر: السواح، فراس، الوجه الآخر للمسيح: موقف يسوع من اليهود واليهودية وإله العهد القديم، (دمشق: دار علاء الدين، ٢٠٠٤)، ص:٦٦، والديانة الغنوصية، هانس يوفاس، ص:٥٥.

(٢) ينظر: الموسوعة الفلسفية، عبد الرحمن بدوي، ص:٨٨–٨٩.

الإلهي، ويلتحم به العارف، وقد تكون أيضاً بعد الموت حيث تصعد الروح مع المخلِّص إلى السماء، وتلتحم بالإله إلى الأبد، لكنَّ هذا الخلاص لن يتحقق إلا لعدد قليل من الأرواح المصطفاة.(١)

وبالنتيجة فإنَّ معنى الخلاص في الغنوصية هو اتحاد الذات الإنسانية مع الذات الإلهية اتحاداً جوهريَّاً.(٢)

(١) ينظر: المسيري، عبد الوهاب، الحلولية ووحدة الوجود، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠١٨م)، ص:٢٧٨.

(٢) ينظر: الموسوعة الفلسفية، عبد الرحمن بدوي، ص:٨٩.

المبحث الثاني
أعلام الغنوصية في القرون المسيحية الباكرة

أثناء الرجوع إلى المصادر التاريخية التي تُؤرِّخ للفكر المسيحي وما يتعلَّق به من فروعٍ وأفكار، وما طرأ عليه من هرطقاتٍ وبدع، تبرز بعض الأسماء لأعلامٍ عاشوا في القرون المسيحية الأولى قبل انعقاد مجمع نيقية المسكوني سنة ٣٢٥م، وقد وُجِدَ في تعليماتهم فكرٌ غنوصيٌ واضحٌ، ويجد الباحث في ذلك أسماءً كثيرة كلُّها تنضمُّ في سلك الغنوصية، ومراعاةً لمقام البحث سوف نقتصر على أهمِّ الأعلام الذين أُثِرَ عنهم هذا النمط الغنوصي من التعليم.

وبما أن الغنوصية تُمثِّلُ تياراً متشعِّباً من الأفكار والتعليمات الفلسفية فإنَّه من الصعب أن نجد عند كلِّ من ينتسب إليها جميع الفروع الفكرية والتعليمات الغنوصية، إنَّما نجد عند كلٍ من هؤلاء الأعلام بعض الأفكار التي تتوافق مع منظومة الفكر الغنوصي، وعلى العموم فإنَّ الفكر الغنوصي ازدهر في المسيحية في القرنين الثاني والثالث للميلاد، لذا فإنَّ أكثر الأعلام الذين كان لهم دورٌ في بلورة الفكر الغنوصي في المسيحية كانوا ممن عاش في هذين القرنين.

المطلب الأول: باسيليد:

يظهر اسم باسيليد كأحدِ أهمِّ أركان الفكر الغنوصي في القرن الثاني الميلادي، فقد صاغ تصوُّراً أنطولوجيَّاً حول فكر خلق العالم والأيونات والخلاص، وهو أوَّل غنوصي مسيحي وصلت إلينا عنه معلومات موثَّقة، وقد اشتُهرت حركته في القرن الثاني الميلادي بين سنتي ١٢٠م و١٤٠م، وقد كتب تفسيراً عن أحد الأناجيل – لم يُذكر إذا كان من ضمن الأناجيل القانونية التي تمَّ عدُّها قانونية في مجمع نيقية سنة ٣٢٥م أو من الأناجيل غير القانونية – تضمَّنَ ثلاثةً وعشرين كتاباً، أورَدَ منه (كليمان) بعض المقاطع في كتابه (الموشِّيات).

وقد اندثر معظم ما كتبه (باسيليد)، لذا فإنَّ إتمام التصور عن تعاليمه وأفكاره يحتاج الرجوع إلى ما كتبه عنه ناقدوه ولا سيما في العصور المسيحية الباكرة، وقد انتشرت أفكاره في الإسكندرية في منتصف القرن الثاني الميلادي، وشكَّلت أحد أهم أسس التأثير في بعض الجماعات المسيحية الباكرة.(١)

(١) ينظر: الماجدي، خزعل، كشف الحلقة المفقودة بين أديان التعدد والتوحيد، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠١٤)، ص: ٣٤٤.

وضع باسيليد لاهوتاً غنوصيَّاً مُعقَّداً مُستمَدَّاً من الميثولوجيا الفارسية والأفكار الأفلاطونية التي اختلط جزءٌ كبيرٌ منها بالمعتَقَد المسيحي، جعله يعتقد أن مسألة الشر بصفتها عنصراً مفارقاً للإله الأعلى لا يمكن بحالٍ أن تكون العناية مصدره أو أحد أسبابه، لذا أُثِرَ عنه أنَّه قال: «لكم ما شئتم، إلا أن تلقوا تبعة الشر على عاتق العناية الإلهية».(١)

يرى باسيليد أن الآب اللامولود وَلَدَ العقلَ، والعقل وَلَدَ اللوغوس، واللوغوس وَلَدَ الفطنة، والفطنة وَلَدَتْ الحكمة والقدرة، والقدرة والحكمة وَلَدَت الأراكين والأيونات والملائكة الذين يسميهم الأوائل، والذين بهم صُنعَت السماء الأولى، ثمَّ بفيض كلِّ هؤلاء جاء ملائكةٌ آخرون إلى الوجود فصنعوا سماءً ثانية شبيهة بالأولى، وبالطريقة ذاتها جاء ملائكةٌ آخرون إلى الوجود بفيضٍ من السابقين وفبركوا سماءً ثالثة، وهكذا إلى أن جاء الى الوجود سلاسل متعاقبة من الأراكين والملائكة حتى بلغ عدد السموات ثلاثمئة وخمساً وستين سماء، لهذا السبب يوجد العدد ذاته من الأيام في السنة حسب عدد السموات.(٢)

ويرى باسيليد أنَّ إله اليهود هو إله الأراكين والملائكة الذين صنعوا عالمنا، وهؤلاء الأراكين يُقيمون في السماء السفلى، وتقوم بينهم مزاحمات يدفع ثمنها البشر الذين يخضعون لهم، وإذا أراد الآب اللامولود أن يحرّر البشر من نيرهم أرسل إليهم ابنه (العقل) الذي ظهر في هذا العالم بظاهر إنسان، فأجرى المعجزات، وكشف عن الإله الحقيقي، وحاول الأراكنة بواسطة اليهود أن يضعوا يدهم عليه لكي يصلبوه، لكنه جعل (سمعان) يُصلب عنه، ثم صعد إلى الآب هازئاً من الأراكين.(٣)

فالذين يعترفون بالمصلوب يظلون عبيداً لمكوّني هذا العالم، أما الذين يعترفون بمن ارتدى ظاهر الإنسان وتظاهر أنَّه صُلِب فهم أحرارٌ ويعرفون الآب اللامولود، ولا علاقة لهم بعد مع إله الشريعة، ويستطيعون أن يستسلموا بدون رادعٍ للأعمال التي يرغبون فيها،

(١) ينظر: برهييه، اميل، تاريخ الفلسفة اليونانية: الفلسفة الهلنستية والرومانية، ترجمة: جورج طرابيشي، (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٨)، ج:٢، ص:٣٠٧.
(٢) ينظر: الحركة الغنوصية في أفكارها ووثائقها، بولس الفغالي، ص:٣٩-٤٠.
(٣) ينظر: الهرطقة في المسيحية، ج. ويلتر، ص٥٧، والوجه الآخر للمسيح: موقف يسوع من اليهود واليهودية وإله العهد القديم، فراس السواح، ص:٨٢.

بما فيها أعمال الفحش والمجون، وبعد موتهم تصعد نفوسهم عبر جميع السموات إلى الآب اللامولود دون أن تستطيع الملائكة ولا القوى أن توقف صعودهم.(١)

ويرى باسيليد أن المعرفة تُخلِّصنا من القوى التي خلقت العالم، لكن هذه المعرفة لا يصل إليها إلا عدد قليل جداً، بحيث يصل واحدٌ من ألف، أو اثنان من عشرة آلاف، لهذا يجب أن تبقى الأسرار خفية، وأما الفداء فيصيب النفوس لا الأجساد التي هي عرضة للفساد، ومن أجل ذلك لا يبالي الغنوصي بالأعمال، بل لا يبالي بالخطيئات الممقوتة، كالفسق والفجور.(٢)

مما تقدَّم نستنتج أن باسيليد صاغ تصوراً أنطولوجياً لنظرية الخلق، وحاول أن يفسر من خلاله الهوة القائمة بين الإله الأعلى والعالم المادي، وحاول كذلك أن يفسِّر وجود الشر في العالم، فانطلق من افتراض وجود ثلاثة عوالم متراكبة، أولها عالم الإله الأعلى وهو عالم الخير، وعنه صدرت مجموعة من الأيونات في تراتبية منحدرة نحو العالم الثالث، وهو العالم المادي الذي خلقه الأيون الخامس والستون بعد الثلاثمئة، وهذا الأيون هو إله العهد القديم (يهوه) الذي اختار لنفسه شعباً يُخضع بواسطته جميع الإنسانية لسلطانه.

ولخلاص النفس الإنسانية من سجنها الذي صنعه يهوه أرسل الإله الأعلى المسيح الصادر عن أيون (العقل)، وينفي باسيليد أن يكون المسيح إنساناً أو أنه اتحد بجسم أثناء انحداره إلى العالم المحسوس؛ لأنَّ طبيعته اللاهوتية الخيِّرة تنفي عنه الاتحاد بالمادة التي هي انعكاس للشر، ومن هذا التصور أقام باسيليد تصوُّراً لمعتقد مسيحي غنوصي لا يعترف بالعهد القديم، ويحتقر (يهوه) ويصوِّره مستحوذاً قاسياً تجاه شعبه.

المطلب الثاني: فالنتين:

بلغ الفكر الغنوصي أوجه ونضجه على يد (فالنتين) المصري، الذي وُلِد آخر القرن الأول للميلاد، وتعلَّم وتثقَّف في الإسكندرية ذات الثقافة متنوّعة المشارب الفلسفية في ذلك

---

(١) ينظر: الحركة الغنوصية في أفكارها ووثائقها، بولس الفغالي، ص:٤٠، ومرقس، يوسف، الغنوصية أو التيارات العرفانية في القرون المسيحية الأولى، (بغداد: شركة الأطلس للطباعة المحدودة، ٢٠٠٩)، ص:٢٩.

(٢) ينظر: الحركة الغنوصية في أفكارها ووثائقها، بولس الفغالي، ص:٤١.

العصر، فاتصل فالنتين بالمسيحيين، وعدَّ نفسه واحداً منهم، لكنَّه شكَّل لنفسه تياراً غنوصياً داخل كنيسة الإسكندرية، وعدَّ نفسه المفسِّر الحقيقي لتعاليم المسيح.

نقل إليه أحد معلميه تعاليم (بولس الرسول) السرية، وأدخله إلى حلقة العرفانيين من خلال عقيدة الآب السماوي الأعلى، فما كان من فالنتين إلا أن رشَّحَ نفسه لمنصب أسقف روما في أواسط القرن الميلادي الثاني رغم أن تعاليمه تشكِّل انشقاقاً تاماً عن لاهوت العهد القديم، وتُقدِّم تفسيراً متطرّفاً لحياة المسيح ولرسائل بولس.[١]

تأثَّرت ثنوية فالنتين في تصوُّرها لصدور الأيونات المتعددة عن المبدأ الأول (الإله الأعلى) بثنوية باسيليد، لكن هناك اختلافٌ بينهما من حيث طريقة صدور الأيونات، فبينما يرى باسيليد – كما تقدَّم – أن الأيونات صدرت بشكلٍ فُرادي وتراتبي نجد فالنتين يرى أن الصدور كان ثنائياً زوجيًّاً.[٢]

عدَّ فالنتين أن الإنسان المكوَّن من روحٍ وجسدٍ يعكس بطبعه ثنائية أعمق يمثِّلُها الإله الصانع الذي يتحدَّث عنه سفر التكوين والإله الأعلى الذي يمثّل مصدر الخير، وفي ضوء تأويل سفر التكوين واقتباس بعض تأويلات (فيلون الإسكندري) يؤلِّف فالنتين قصة الخلق وفق مبدأ ثنوي قائم على المهمة الخلاصية للإله الأعلى الذي يخلِّص النفس ويحرّرها من شوائب الشر التي حدثت أثناء عملية الخلق نفسها.[٣]

يرى فالنتين أن الإله الأعلى صدر عنه ثلاثون أيوناً بشكلٍ ثنائي زوجي منحدرة نحو العالم السفلي، وأثناء الانحدار ينبثق كل زوج أيوني عن الذي يسبقه بفعل الشهوة التي وُضعت فيه، وصولاً إلى الأيون الأخير (صوفيا) الذي عصى الطبيعة الإلهية لمَّا أراد أن يلد أيوناً من دون أن يكون له زوج محاكياً في ذلك أحادية الإله الأعلى، وجاهلاً أن هذا الإله غير

(١) ينظر: الوجه الآخر للمسيح: موقف يسوع من اليهود واليهودية وإله العهد القديم، فراس السواح، ص:٨٠.

(٢) ينظر: كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، (مصر: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٦)، ص:٢٥٧.

(٣) ينظر: النشار، مصطفى، مدرسة الإسكندرية بين التراث الشرقي والفلسفة اليونانية، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٥م)، ص:٨٣.

مخلوق، بينما طبيعة (صوفيا) مخلوقة، فمن هذا الخطأ الأنطولوجي صنع (صوفيا) العالم المادي كسجنٍ للروح الطيبة الخيِّرة.

يقول ج. ويلتر عن فالنتين: «بالنسبة إليه كان الآب بصحبة الصمت، وقد ولَّدَ الزوج المتمثّل بالروح والحقيقة، والذي يخرج منه كلمة الله والحياة، اللذان بنتجان بدورهما الإنسان والكنيسة، ثم تنبثق من الزوج الأول عشر أيونات، ومن الثاني اثنا عشر أيوناً، أي بالمجموع ثلاثون كائناً أعلى يشكِّلون البليروم، وفي الدرجة الأخيرة من الاثني عشرية هنالك الأيون المؤنث (Sophia) وهي روح فضولية، تريد لأجل تقليد الآب أن تتناسل، ولا تنجح إلا في توليد المادة عديمة الشكل، وبناءً على رجاء أيونات البليروم يغفر الآب للحكمة، ويجيز للروح والحقيقة إنتاج زوجٍ جديد هو المسيح والروح القدس، يسود السلام مجدداً في البليروم ويتَّحد كل السكان ليلدوا الأيون يسوع الذي يمر عبر العذراء، ويجيء لأجل إرساء النظام الكوني.[١]

وأسطورة (صوفيا) السابقة تشكِّل مفتاحاً لفهم كل الملابسات الخيالية الغنوصية، وقد قام باستعراضها ودراستها أتباع فالنتين، فأغنوها مع الوقت بمعلومات وإضافات أخرى.[٢]

وكان فالنتين يقسّم الناس إلى غازيين (روحانيين) هم المسيحيون، وإلى نفسيين وهم اليهود، وماديين فالنوع الأول يُخلِّصهم العرفان، والنوع الثاني يخلِّصهم فعل الخير، والنوع الثالث يعودون إلى التراب الذي أتوا منه.[٣]

وبناءً على نظرية فالنتين السابقة، فإن الخلاص عنده لا يعني أن الإله الأعلى سيخلِّص الإنسانية من بؤس الحياة وفساد العالم المادي، إنَّما يعني الخلاص عنده تحرير النفس البشرية وتوجيهها إلى طبيعتها الخيِّرة التي كانت تجهلها قبيل خلق العالم المادي لمَّا كانت على اتصالٍ دائمٍ بالإله الأعلى.

(١) الهرطقة في المسيحية، ج. ويلتر، ص:٥٨.
(2) ينظر: الغنوصية أو التيارات العرفانية في القرون المسيحية الأولى، يوسف مرقس، ص:33.
(٣) ينظر: الهرطقة في المسيحية، ج. ويلتر، ص:٥٨.

ومن هنا حُدِّدَت مهمة المسيح – وسيط الإله الأعلى – في الفكر الفالنتيني لا في خلاص البشر من العالم المادي، إنَّما في نوعٍ من العرفان، تعرج من خلاله نفس الإنسان إلى طبيعتها الأصلية في العالم الإلهي.(١)

المطلب الثالث: مرقيون:

اختلف المؤرخون في تصنيف مرقيون، فبينما عدَّه بعضهم هرطيقاً مبتدعاً صنَّفهُ آخرون فيلسوفاً لاهوتياً مفسِّراً للكتاب المقدَّس، وسبب عدِّه لاهوتياً أنَّه انفرد بمفاهيم تأويليةٍ للعهد القديم جُمعت فيما أسماه (إنجيل مرقيون)، إضافةً إلى تأسيسه كنيسة قوية التنظيم اجتذبت كثيراً من الأتباع واستمرت إلى القرن الخامس للميلاد.

وغالب ما عليه المصادر المسيحية أنَّ مرقيون هرطيقٌ مبتدعٌ من هراطقة القرن الثاني للميلاد؛ وذلك لأنَّه أنتج فكراً غنوصياً قائماً على مبدأ ثنوي.(٢)

يُخالف مرقيون التيارات الغنوصية في قضية خلق العالم؛ إذ يستغني في نظريته عن وجود الأيونات، ولا يعطيها دوراً في الوساطة والفيض، إنما يفسِّرُ خلق العالم تفسيراً بسيطاً، فيرى أنَّ الإله الصانع خلَقَ العالم المرئي، وهو الإله العادل والقاسي الذي برزَ في العهد القديم، وهذا الإله يكافح صنيعه المشؤوم إلهُ الإنجيل الطيب والرؤوف.(٣)

وبهذا التنظير لخلق العالم يُقرُّ مرقيون بنوعٍ من الثنوية التي تعتمد على الفصل الكلي بين مضامين العهدين القديم والجديد؛ وذلك بالتفريق بين إله العهد القديم (يهوه) وبين إله العهد الجديد (الآب) الذي وردَ في تباشير المسيح، فالأوَّل هو صانع المادة في العالم المحسوس، وهو واضع الشريعة التوراتية التي أوجب على شعبه اتباعها.

وحسب هذا التبرير الفلسفي لخلق العالم يتصارعُ الوجودَ كلَّه قوتان غير متساويتان، الإله الصانع الخالق بما هو انعكاس للعدل، والإله الأعلى بما هو انعكاس لكل ما هو طيب، وبهذا المنطق تختلف ثنوية (مرقيون) عن ثنويات المعتقدات الشرقية القائمة على النور

(١) ينظر: مدرسة الإسكندرية بين التراث الشرقي والفلسفة اليونانية، مصطفى النشار، ص:٨٣.
(٢) ينظر: الهرطقة في المسيحية، ج. ويلتر، ص:٦٤.
(٣) ينظر: الهرطقة في المسيحية، ج. ويلتر، ص:٦٥.

والظلمة، وثنويات المسيحية الغنوصية القائمة على الخير والشر، من حيث إنَّ (مرقيون) يقابل العدل بالغفران، والقسوة بالمحبة.(١)

ويتضح مما سبق الاختلاف بين المعتقد المرقيوني وعموم المعتقد الغنوصي الذي يقرُّ بنوعٍ من الروابط بين الإله الأعلى وبين الإله الصانع عن طريق الأيونات والأراكين، بينما ينفي (مرقيون) هذا الاتصال، ويضعهما في عالمين مفارقين لبعضهما.

ومما يُشار إليه هنا أن (مرقيون) كان لا يقبل شيئاً من التوراة، ولا يقبل من الأناجيل سوى إنجيل لوقا بعد اقتطاع مقاطع منه تتضمَّن التجسّد، واقتطاع عشرٍ من رسائل بولس الرسول، ويعدُّ بولس هو المؤسس الحقيقي للشريعة الجديدة، وكان (مرقيون) يؤمن أن جسد يسوع ظاهري فقط، والروح القدس لم يمر بمريم، وأنَّ المسيح ظهر في اليهود فجأةً دون أن يكون ولد أو كبر.(٢)

ويعتقد (مرقيون) أن الوحي الإلهي تنزَّلَ مرتين، إحداهما في العهد القديم والأخرى في العهد الجديد، وأنَّ المسيح المخلِّص في العهد الجديد مختلفٌ جذريًّاً عن الماشيح الذي تنبَّأ به العهد القديم، وأنَّ الإله الذي تجلَّى لموسى يختلف عن الإله الذي تجلَّى في المسيح، ولذا تصوَّر (مرقيون) أن الإنسان الذي صنعه الإله الصانع روحاً وجسداً لا يملك أيَّ قبسٍ من العالم الإلهي، والخلاص عنده يتحقّق بالإيمان بالمسيح مخلِّصاً وابناً للإله الأعلى، وهذا الإيمان هو نهاية الصراع الذي يتحرّر من خلاله الإنسان من هيمنة الإله الصانع، وتتحقق سيادة الإله الأعلى، وهذا على خلاف باسيليد وفالنتين اللذين يتحقق الخلاص عندهما بالعرفان(٣)، ويرى مرقيون أن الصراع بين الإله الأعلى والإله الصانع سينتهي بانتصار المسيح الذي سينزل إلى الجحيم لافتداء المختارين.(٤)

فمما تقدَّم نستطيع أن نرسم الصورة العامة عن المرقيونية بأن طبيعة يسوع المسيح

---

(١) ينظر: الخلاص عند الغنوص، منير تمودن، دورية نماء، العدد ١، سنة ٢٠٢٤م، ص:٨٥.

(٢) ينظر: الهرطقة في المسيحية، ج. ويلتر، ص:٦٥.

(٣) ينظر: رسل، برتراند، تاريخ الفلسفة الغربية: الفلسفة الهلنستية والرومانية، ترجمة: زكي نجيب محمود، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٤٦م)، ج:٢، ص:٠ ٣١.

(٤) ينظر: الهرطقة في المسيحية، ج. ويلتر، ص:٦٥.

فيها أو الكرستولوجية تقوم على إنكار ولادة المسيح وموته على الصليب، والمرقيونية تحتقر المادة التي صنعها إله العهد القديم، وتعدُّها رديئة لا يمكن أن تعكس طبيعة المسيح الناسوتية، فلا يمكن أن يكون ظهور المسيح في العالم المادي إلا ظلاً أو شبه جسم، وباحتقار المرقيونية للمادة فإن عموم أتباعها كانوا يمتنعون عن الزواج؛ لأنَّه يُعدُّ امتداداً للمادة، وإنتاجاً لمزيد من الأجساد التي تقع تحت سيطرة الإله الصانع.(١)

(١) ينظر: الخلاص عند الغنوص، منير تمودن، ص:٨٦.

المبحث الثالث

المبادئ الغنوصية في المسيحية التقليدية

لا يصعب على القارئ في التاريخ واللاهوت المسيحيين أن يجد آثاراً واضحة للفكر الغنوصي ومبادئه في المسيحية التقليدية، كان هذا نتيجة التقارب الزمني بينهما من ناحية أولى ونتيجة تبنّي بعض الشخصيات المسيحية هذا الفكر من ناحية ثانية كما مرَّ سابقاً.

وصحيح أن المسيحية في قرونها الأولى ناهضت الفكر الغنوصي إلا أن تأثرها بهذا الفكر لا يُنكر، ونحن وإن لم نجد في المسيحية الأفكار الغنوصية بحذافيرها إلا أنَّ بعض المبادئ موجودة بشكلٍ جلي وواضح، وكان ذلك نتيجة انجذاب أعدادٍ من المسيحيين إلى الغنوصية.

وأما سبب هذا الانجذاب فلعله التشابه بينهما من حيثيات كثيرة، يقول ماكجفرت: «يوجد في تعاليم الغنوصية بعض التشابه مع تعاليم بولس ويوحنا وحتى مع بعض أقوال يسوع نفسه.... وثنائيتهم وجدت سنداً في تعليم بولس الرسول عن الروح والجسد.... وعقيدة الدوستية التي يعتنقونها وجدت أيضاً سنداً في القول بأنَّ المسيح كان كائناً إلهياً جاء من السماء، ورفضهم للعهد القديم وللإله الذي أعطاه يستند على حوار بولس ضد الناموس، وتقسيمهم البشر إلى طبقتين الذين يستطيعون الخلاص والذين لا يستطيعونه بنوه على التمييز الذي وضعه يسوع بين أبناء الله وأبناء إبليس».[(١)]

بالإضافة إلى أمرٍ مهم وهو قدرة الغنوصية على الإجابة عن كثيرٍ من التساؤلات والمشكلات اللاهوتية التي تطرأ على الفكر البشري في الوقت الذي لم تكن المنظومات الفكرية المسيحية قد تبلورت بشكلٍ كافٍ لتحتوي على أجوبةٍ لتلك التساؤلات، مثال ذلك مسألة وجود الشر في العالم، فقد احتوت الغنوصية إجابات عديدة لتلك المشكلة، فكانت تستهوي بذلك مَن يطلب إجابات لاهوتية فلسفية من هذا النوع[(٢)]، فكان للقاء الغنوصية بالمسيحية أهميَّة بالغة؛ إذ تسللت بين المسيحيين لا سيما المثقفين الذين حاولوا ابتكار منظومات فكرية واضحة للمسيحية.[(٣)]

(١) أثر مدرسة الإسكندرية في هيكلة الغنوصية المسيحية، مريم زروتي، مجلة المعيار، العدد ٦٢، سنة ٢٠٢١، ص: ٢٩١.

(٢) ينظر: لوريمر، جون، تاريخ الكنيسة، (القاهرة، دار الثقافة المسيحية، د.ط)، ج: ١، ص: ١٠٦-١٠٧.

(٣) ينظر: الثالوث القدوس قبل نيقية، أمجد بشارة، ص: ١٤٠.

وإذا أردنا تحديد أبرز مواطن تأثر المسيحية التقليدية بالغنوصية فإننا نلمحها في الملامح التالية:

المطلب الأول: مسألة المعرفة:

تبيَّنَ معنا أنَّ أبرز ما تميَّز به الفكر الغنوصي عن غيره من التيارات الفلسفية هو تركيزه على نوعٍ خاصٍ من المعرفة، وكون هذه المعرفة لا تُدرَك بالحواس، إنما هي معرفة سرية باطنية، وإن الناظر في المسيحية التقليدية يجد أثراً واضحاً لهذا المبدأ فيها.

تدعو المسيحية التقليدية – ولا سيما التيارات الصوفية فيها – إلى المعرفة الإلهامية، فمثلاً (أوغسطين) يؤمن بمعرفة تسمو على المعرفة الحسية والعقلية، وهي المعرفة الإشراقية، أي الإشراق أو الإشعاع أو الفيض من النور الأول متمثلاً في اللوغوس أو الكلمة[1]، يقول (أوغسطين): «في إطار الحقائق تؤمن النفس بشهادة الحواس التي يضعها الجسد في خدمتها، لأنها تؤمن بها لأن مَن يفكر بأنه لا يجوز تصديقها يخطئ خطأً فادحاً .... هنا أشياء لا ندركها لا بالحواس ولا بالعقل، حيث تنقصنا أنوار الكتاب».[2]

ويرى عبد المنعم حنفي أنَّ النظرية الإشراقية عند (أوغسطين) ليست طريقاً للمعرفة فحسب، بل هي وسيلة أيضاً للحصول على السعادة، فالمعرفة الحقة هي معرفة الحقائق من المعلم الداخلي، وأساس هذه الحقائق وجود الله الذي يكشف عن نفسه داخل الفرد، وتتم لهذا الأخير معرفته به.[3]

ولعل الأمر الذي حمل الباحثين على القول إن هذا المذهب الأوغسطيني يمثِّل المسيحية التقليدية أو إنه قريب منها أن القديس أوغسطين في بداية حديثه الذي تم الاقتباس منه يستشهد بإعلانات من العهد الجديد من أقوال بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس فُهِم منها الإشارة إلى قصور العلم الإنساني الظاهر، قال بولس: «المحبة لا تسقط أبداً وأما النبوات

(١) ينظر: أوغسطين، مدينة الله، ترجمة: يوحنا الحلو، (بيروت: دار المشرق، ٢٠٠٢)، ط٢، ج:٣، ص:١٤٧.

(٢) مدينة الله، أوغسطين، ترجمة: يوحنا الحلو، ج:٣، ص:١٤٧.

(٣) ينظر: حنفي، عبد المنعم، نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٨م)، ط٢، ص:٢٨.

فستبطل والألسنة فستنتهي والعلم فسيبطل، لأننا نعلم بعض العلم ونتنبأ بعض التنبؤ، ولكن متى جاء الكامل فحينئذٍ يبطل ما هو بعض، لما كنت طفلاً كطفلٍ كنت أتكلم وكطفل كنت أفطن وكطفل كنت أفتكر ولكن لما صرت رجلاً أبطلت ما للطفل، فإننا ننظر الآن في مرآة في لغزٍ لكن حينئذٍ وجهاً لوجه الآن أعرف بعض المعرفة لكن حينئذٍ سأعرف كما عُرِفت» (كورنثوس ١: ١٣/٨-١٢).

المطلب الثاني: الروحانية والتأويل الرمزي:

عُرف عن الغنوصية مغالاتها في الرمزية، بل حمل جميع الحقائق والنصوص لا على ظاهرها؛ إنما على معانٍ بعيدة عن ظاهرها إلا بالتأويل والرمزية، وذلك بهدف صبغ هذه المعاني بالصبغة الروحية والابتعاد عن النصيَّة.

وأما اللغة الرمزية في المسيحية فهي موجودة بكثافةٍ لا يكاد يقبلها إنسان عاقل، ولعله أثرٌ من آثار الغنوصية في المسيحية، ولقد كان أول مَن بدأ هذا اللون من القراءة الروحية الرمزية للنصوص من اللاهوتيين مجموعة ذكرهم التاريخ المسيحي على أنهَّم معلمو اللاهوت الروحي، منهم (أوريجانوس، وأنطونيوس، وأمبرواز، ،أوغسطين)، وغيرهم، ويمثّلُ هؤلاء أصحاب أغلب الشروحات الروحية، وقد ميَّزَ هؤلاء بين المعنى الحرفي والروحي للكتاب المقدس، وأطلقوا على العهد الجديد تسمية (شريعة الروح).[1]

ولعل أوريجانوس أوَل مَن شرع في تفسير الدين المسيحي انطلاقاً من المنهج الذي يتجاوز الدلالة الظاهرية للنصوص الكتابية، وأسس منهجاً متكاملاً في التفسير الرمزي يقوم على ثلاثة مستويات، أولها المستوى النصي الحرفي، وثانيها المستوى الروحي، وثالثها المستوى السري، ثم اتخذ هذا التأويل صورة رباعية يتدرَّج من المعنى الحرفي إلى المعنى الأخلاقي ثم إلى المعنى الرمزي ثم إلى المعنى السري.[2]

وكمثال عن التفسير الرمزي تبنَّت المسيحية لغة الزواج معبِّرةً عن العلاقة بالله في مجال

---

(١) ينظر: جوميه، جاك، وإدوارد، مارتن، المسيح ابن مريم، (بيروت: دار المشرق، ١٩٩٩م)، ط٢، ص:٤٩.

(٢) ينظر: جعفر، محمد كمال، التصوف طريقاً وتجربةً ومذهباً، (القاهرة: دار الكتب الجامعية، ١٩٧٠م)، د.ط، ص:١٥٩.

إنساني، فهناك (العريس) الذي يرمز إلى الكلمة الإلهية، وهناك العروس التي ترمز إلى النفس البشرية، وقد تنبَّه أويجانوس إلى أنَّ فهم نشيد الأناشيد فهماً حرفياً مادياً قد ينغمس قارؤه في تصورات غرامية بعيدة كل البُعد عن الحياة الروحية، أما إذا فهم ذلك النص فهماً روحياً رمزياً فسيقوده إلى عالم اللوغوس الإلهي الذي يُرمز له في النص بصورة المحب الذي يحب حبيبته – وهي الكنيسة والنفس المؤمنة – حباً شديداً دفع ضريبته الموت على الصليب.[(١)]

جاء من بعد أوريجانوس القديس (أوغسطين) الذي تطوَّر معه منهج التأويل، وخلَّفَ نظريات اختلطت بها الفلسفة مع العقيدة الدينية، وكوَّنت علم اللاهوت الوسيط الذي يوفِّق بين العقل والوحي، لكنَّه يغلِّب في النهاية المعنى الباطني على المعنى الظاهري، يقول كمال جعفر مؤكداً ذلك: «نلاحظ أن المفسرين المسيحيين في أغلب الأحيان يتغاضون عن المعنى الحرفي للنص نهائياً مستبدلين إياه بالمعنى الذي يقترحونه زاعمين أنَّ هذا المعنى وحده هو ما يجب أن يؤخذ به».[(٢)]

ثم جاء القديس (توما الإكويني) الذي أفردَ علماً خاصاً باللاهوت الطبيعي ليعالج قضايا الدين والفلسفة، فوضع كتابين (خلاصة الرد على الأمم) و(الخلاصة اللاهوتية) لتأويل القضايا الدينية وفهم الألغاز والأسرار الإيمانية كالثالوث المقدَّس والتجسد.[(٣)]

المطلب الثالث: فلسفة الخلاص:

تبيَّن معنا فيما سبق أن الخلاص يشكِّل أحد أهم الأركان في الفكر الغنوصي، ولقد تسرَّب هذا الركن إلى المسيحية نتيجة التأثير الغنوصي فيها، حتى غدا الخلاص أحد أهمِّ أركان الديانة المسيحية، بل هو الفضيلة الكبرى التي تقدِّمها المسيحية لأتباعها.

وإننا لا ننكر أن فحوى هذا الخلاص مختلفٌ بين الغنوصية والمسيحية، إذ تنفرد كلٌّ من الغنوصية والمسيحية بفلسفةٍ خاصةٍ في هذا المبدأ، فيبقى التأثر المسيحي بالغنوصية فيما يخص الخلاص محدداً في سريان هذا المبدأ إليها مع تغيير المسيحية في فحواه.

---

(١) ينظر: سكاتولين، جوزيبي، تأملات في التصوف والحوار الديني، ترجمة: محمود عزب، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٣)، د.ط، ص:٣٢٩.

(٢) التصوف طريقاً وتجربةً ومذهباً، كمال جعفر، ص:١٥٩.

(٣) ينظر: التصوف طريقاً وتجربةً ومذهباً، كمال جعفر، ص:٤٢٩.

يتمُّ الخلاص في الغنوصية – كما تقَّدم – عن طريق معرفةٍ تنشد الإله انطلاقاً من حدسٍ باطني، وتنطلق هذه المعرفة من تجربة روحانية داخلية تقود إلى معرفة النفس، التي تقود بدورها إلى معرفة الطبيعة الإنسانية ومصير الإنسان، وهي في أعمق مستوياتها تقود إلى معرفة الإله، وخلال هذا المستوى يتحقق تحرر النفس حبيسة الجسد المادي، واتحادها بالأصل الإلهي.(١)

أما في المسيحية فقد بلورت الأناجيل مفهوماً خلاصيَّاً بشكل يجعل من الطبيعة البشرية عاجزة عن تحررها من شوائب الشر إلا بتدخُّل فعلٍ إلهي تدرَّجَ من خلاله الإله من مقام الألوهية إلى مستوى المادة (المسيح).(٢)

لذا فإن الخلاص في المسيحية لا يكون إلا عن طريق المسيح، وسبيل تحقيق ذلك إنما هو الإيمان بيسوع المسيح الذي أرسله الآب ليفتدي البشرية من لعنة الناموس، أي من الخطيئة الأصلية المتوارثة في طبيعة البشر من خلال معصية آدم التي استحقت ذريته بها اللعنة والطرد.

فالخلاص في المسيحية هو تحرير الإنسان الكامل من دَيْنِ الخطيئة ومرضها وسلطانها واستعبادها نفساً وروحاً وجسداً، والأخذ بيده حتى يقف أمام الله في كمال البر والقداسة والمجد(٣)، وقد تبين معنا المفهوم الخاص للخلاص عند الغنوصيين الذي لا يمر بمرحلة المسيح، إنَّما يركّز على المعرفة الباطنية وما تفيضه على النفس من فيوضات ومعانٍ، وما يتم بعدها من الاتحاد بالإله.

ومن الحري بموضوعية البحث أن نشير هنا إلى أن فحوى هذا الخلاص مختلفٌ بين الغنوصية والمسيحية، إذ تنفرد كلٌ من الغنوصية والمسيحية بفلسفةٍ خاصةٍ في هذا المبدأ، فيبقى التأثر المسيحي بالغنوصية فيما يخص الخلاص محدداً في سريان هذا المبدأ إليها مع تغيير المسيحية في فحواه فقط، لذا فالتشابه بينهما في جزئيات بسيطة، ومن هنا يبقى إدراج هذا المبدأ ضمن المؤثرات الغنوصية منطوياً على شيء من التجوز فيما عدا سريان هذا المبدأ إلى المسيحية.

---

(١) ينظر: الوجه الآخر للمسيح: موقف يسوع من اليهود واليهودية وإله العهد القديم، فراس السواح، ص:٦٦.

(٢) ينظر: الخلاص عند الغنوص، منير تمودن، ص:٧٦.

(٣) ينظر: مقار، إلياس، قضايا المسيحية الكبرى، (القاهرة: دار الثقافة المسيحية)، ط٣، ص:٣٨٧.

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة في ثنايا كتب الفلسفة واللاهوت والتاريخ نصل إلى النتائج التالية:

١ – شكَّلت الغنوصية تياراً فكرياً ذا فروعٍ متشعّبة تتنوّع حسب المشارب الثقافية للبيئة التي وجدت فيها.

٢ – تتلخَّص عامة المنطلقات الفكرية للفكر الغنوصي في المعرفة السرية الباطنية والطبيعة التلفيقية والهدف الخلاصي.

٣ – تبيَّن في البحث وجود أنساقٍ من الفكر الغنوصي سابقة على نشأة الديانة المسيحية الأمر الذي يرجِّح بداية الفكر الغنوصي قبل التاريخ المسيحي دون أن يتبلور في منظومات فكرية معينة.

٤ – ازدهرَ الفكر الغنوصي في القرن الثاني من الميلاد على يد أعلامٍ مسيحيين شكَّلت تعاليمهم منظومات غنوصية واضحة كان منهم على سبيل المثال: باسيليد وفالنتين ومرقيون.

٥ – لوحظ وجود الأثر الغنوصي في المسيحية التقليدية في محاور محددة كان أهمها المعرفة السرية التي تميّزت بها الغنوصية وتسرَّبت إلى المسيحية التقليدية، وكذا الروحانية والتفسير الرمزي للنصوص الدينية.

٦ – احتوت المسيحية مبدأ الخلاص الذي قد يكون إحدى تأثيرات الغنوصية، وعلى فرض كونه كذلك فإن تأثير الغنوصية من هذه الناحية لا يعدو سريان الفكرة إليها؛ وذلك لوجود الفروق الكثيرة بين الفلسفة المسيحية والغنوصية في هذا المبدأ.

المراجع

إلياد، مرسيا إيون. (1987). *تاريخ الأفكار والمعتقدات الدينية* (عبد الهادي عباس، ترجمة). دمشق: دار دمشق.

بدوي، عبد الرحمن أحمد. (2019). *الموسوعة الفلسفية*. القاهرة: مؤسسة المدى.

برهييه، اميل نويل. (1988). *تاريخ الفلسفة اليونانية: الفلسفة الهلنستية والرومانية* (جورج طرابيشي، ترجمة). بيروت: دار الطليعة.

بشارة، أمجد خليل. (2017). *الثالوث القدوس قبل نيقية*. مصر: دار سلام.

تمودن، منير إلياس. (2024). الخلاص عند الغنوص. *دورية نماء*، 8(1). 70–91. https://doi.org/10.59151/.v8i1.356

جعفر، محمد كمال الدين. (1970). *التصوف طريقاً وتجربةً ومذهباً* (د.ط). القاهرة: دار الكتب الجامعية.

زروتي، مريم عبد الرحمن. (2021). أثر مدرسة الإسكندرية في هيكلة الغنوصية المسيحية. *مجلة المعيار*، *25* (62)، 282–299.

سكاتولين، جوزيبي ماريا. (2013). *تأملات في التصوف والحوار الديني* (محمود عزب، ترجمة؛ د.ط). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

السواح، فراس محمد. (2004). *الوجه الآخر للمسيح: موقف يسوع من اليهود واليهودية وإله العهد القديم*. دمشق: دار علاء الدين.

الفغالي، بولس جرجس. (2009). *الحركة الغنوصية في أفكارها ووثائقها*. لبنان: الرابطة الكتابية.

لالاند، أندريه لويس. (2001). *موسوعة لالاند الفلسفية*. (خليل أحمد خليل، ترجمة؛ ط.2). بيروت: منشورات عويدات.

المدني، محمد نمر. (2015). *الغرب ليس مسيحياً*. دمشق: دار علاء الدين.

مرقس، يوسف حنا. (2009). *الغنوصية أو التيارات العرفانية في القرون المسيحية الأولى*. بغداد: شركة الأطلس للطباعة المحدودة.

المسيري، عبد الوهاب محمد. (2018). *الحلولية ووحدة الوجود*. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

مقار، إلياس سليم. (د.ت). *قضايا المسيحية الكبرى* (ط.3). القاهرة: دار الثقافة المسيحية.

النشار، مصطفى محمد. (1995). *مدرسة الإسكندرية بين التراث الشرقي والفلسفة اليونانية*. القاهرة: دار المعارف.

ويلتر، جورج فيلهلم. (2007). *الهرطقة في المسيحية* (جمال سالم، ترجمة). بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر.

يوفاس، هانس ماتيس. (2017). *الديانة الغنوصية*(صباح الدهيسي، ترجمة). دمشق: مطبعة تموز.

JOURNAL OF SHARIA AND ISLAMIC STUDIES

A refereed Academic Quarterly, Published by the Academic Publication Council - University of Kuwait

The influence of Gnostic thought on the formation of Christian theology

Dr. Mahmoud Abdel Rahman Dado

Faculty of Sharia - University of Aleppo

Academic Publication Council



جامعة الكويت
KUWAIT UNIVERSITY

P-ISSN: 1029-8908

E-ISSN: 2960-1479

Issue No. 144 - Volume 41

Ramadan 1447 A.H. - March 2026